البابُ الثلاثون

في حُسنِ المؤازرةِ، وإتقانِ سرِّ المشاورة، وكيفيّة سيرةِ الوزيرِ وما يجبُ عليه من الترتيبِ والتدبيرِ

ولنذكرْ في هذا البابِ جملةً كثيرةً من الأسبابِ والآداب، بحيثُ يصيرُ حَجْمهُ كحجم كتابٍ واللّهُ الموفقُ للصوابِ.

قال الله تعالى حكايةً عن دعاء موسى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢﴾[1]، ثمَّ قال في نظام هذه الآية: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾[2].

وعن رسولِ اللهِ ﷺ: «إذا أرادَ اللّهُ بمَلِكٍ خيراً جعل له وزيراً صالحاً، إنْ نَسِيَ ذكَّره وإنْ ذكَرَ أعانه».

وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: نِعْمَ المؤازةُ المشاورةُ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ.

وقال حكيم من الحكماءِ: إنَّ الوزيرَ للملكِ كالرُّوحِ في الجسدِ، فالجسدُ ضائعٌ إذا لم يكنْ فيه الروحُ، والروحُ ضائعة إذا لم تكن في جسدٍ، فكذلك

(1) طه: الآيات (25 - 32).

(2) طه: الآية (36).

obeikandi.com

المَلِك ضائعٌ إذا لم يكنْ له وزيرٌ يرشدهُ، حين يسترشده الملِكُ، ويشير عليه حين يستشيره، ولا بقاء لواحدٍ دونَ الآخَرِ، ونحن نذكرُ في هذا البابِ جملةً كبيرة تُؤْذِنُ بخلاصةِ اللبابِ تيسيراً للطلابِ.

فنقول: قد شرّف الله عزَّ اسمه الوزارةَ، وعظَّم خَطَرَها، وحسَّنَ أثرها وجعلها سمعَ الملِكِ الذي هو خليفة الله في أرضه، واليدَ المبسوطة على خلقه، فالوزارة: اسمٌ جامعٌ للمحاسنِ، ناظمٌ لعقودِ المعالي والمكارمِ، ثم محلُّ كلِّ وزيرٍ على قَدْرِ الخطرِ من مستوزِرِه، فكلما كانَ الملِكُ أرفعَ شأناً وأعظمَ سلطاناً كانَ وزيرُه أجمعَ لأسبابِ الفضلِ، وأنْصَبَ لأعلامِ المجدِ، وعمدةُ هذا أنَّ الأنبياءَ الذين أكرمهمُ اللَّهُ بوحيه، وأيدهم بهديه، لم يستغنوا عن الوزراء؛ فضلاً عن الملوكِ والأمراء، وقد ذكرنا حكايةَ موسى، وقد كان (آصفُ بن برخيا) وزيرَ سليمانَ بن داودَ عليهما السلامُ والمستولي على أمورِه، وإن كان السلفُ لم يطلقوا لفظَ الوزارةِ على أبي بكر وعمرَ ﷺ كل الإطلاقِ رفعاً للنبي ﷺ، وتنزيهاً له على المُلْكِ الذي تقترن به الوزارة، وقد كانا في الحقيقةِ وزِيْرَيْهِ.

رويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن لي وزيرَيْنِ في السماءِ، ووزيرَيْنِ في الأرضِ، فاللذانِ في السماءِ جبريلُ وميكائيلُ، واللذانِ في الأرض: أبو بكرٍ وعمرُ»، وقد شهِد لهما بالوزارةِ زيدُ بنُ عليِّ بنِ الحسينِ عليهم السلامُ، حين قال له أصحابُه من المتشيعةِ: إن كنتَ تريدُ أن نبايعَك فالعنْ أبا بكر وعمرَ، فقالَ: واللهِ ما كنتُ لألعنَ وزيرَيْ جَدي، فرفضوه فسُمُّوا: الرافضةَ.

ودعا بعضُ الخلفاءِ مَخْلَدَ بنَ الحسينِ يستشيره في بعضِ أموره، فلما فَرَغَ منها قال: يا مَخْلَدُ ألا تأتينا فتعيننا على هذا الأمرِ؟ فما رأيتُ أعقلَ

منـك، فلـو أتيتنا استفدْنـا منك، واستفدت منـا، قال: يا أمـيرَ المؤمنين؛ ومـا كنتَ تستفيدُ مني؟ قال: العلمَ والأدبَ، قـال: وما أستفيدُ منك؟ قال: الدنيـا. قـال مخْلَدٌ: إني لا أبيعُ دينـي بدنياك، ولكنّ يا أمـيرَ المؤمنين: بم استدللـتَ على عقلي، قال: بالصيانةِ والديانـةِ والأمانةِ، قال: فلا تسألني شيئاً أحببتني عليه، إني إذاً لو فعلتُ ذلك ذهبَ كلُّه مني، قال: يا مخْلَدَ ما كنتُ رأيتُ قطُّ أعقلَ منكَ الساعةَ.

قـال: وسأل أبو جعفـرٍ أميرُ المؤمنين إسماعيلَ بـنَ عبدِاللّه: من ينبغي للملكِ أنْ يتخَذه وزيراً؟ قال: أسلمُهم قلباً وأبعدُهم عن الهوى.

وكان (أنوشـروان) يقـول: لا يستغنـي أجودُ السيوفِ عـن الصقلِ، ولا أكرمُ الدوابِّ عن السوطِ، ولا أعلمُ الملوك عن الوزير.

ولمكانـة الـوزراءِ لدى الأمـراءِ والملـوكِ ومشاركتِهم إياهـم في الأمورِ، وتصريفِ أعنّةِ التدبيرِ ما قد جرى في المثلِ السائرِ: لا تغترنَّ بكرامةِ الأمير إذا شكَّ الوزيرُ.

وقـد أشـارَ إلى هذا المعنى أبـو الفضلِ بنُ العميـدِ، وزادَ فيه حيث قالَ لصديقٍ له من العلويين، كان مختصاً بركن الدولة:

وزعمتَ أنكَ لستَ تَحْفرُ بعدما
علقتْ يـداك بـذمـةِ الأمـراءِ
هيهاتَ لم تَصْدُقْكَ فكرتُك التي
قـد أوهمتـك غنـى عـنِ الـوزراءِ
لم تُغْـنِ عن أحدٍ سَماءٌ لم تجد
أرضـاً، ولا أرضٌ بغير سماء

وفي المثل: إذا طلبتَ نائلَ الأمير فألْطِفْ له من جهةِ الوزيرِ.

ولما سُعي بأحمدَ بـن الطيّبِ السَّرخسيِّ إلى المعتضدِ بالقاسم بنِ عبيدِ اللهِ قال له المعتضد: يا سَّرخسيُّ لا تلعبْ بوزيري وظهيري، ومَنْ قلمُه نَاسِجُ وَشْيِ مملكتي، وناظمُ عقدِ دولتي، وهو في الاختصاصِ بي قطعةٌ مِنّي.

وقـال الفتحُ البُسّتي الكاتبُ يوماً: لم أعلمْ أن أبا إسحاقَ الصابيَّ أكتبَ النـاسِ وأبلغَهم -ولـولا الديانةُ لقلتُ أعقلَهم- حتى عَـثْرت على فَصْلٍ له: في حكمـةِ اللهِ تعـالى ذِكْـره في اختلافِ طبقـاتِ النـاسِ، وافتقارهم إلى الملـوك والـوزراء، وحاجـةِ بعضِهـم إلى بعضٍ، واطِّـرادِ أمر العـالم بهذا التدبـير، فكِـدّتُ أَحنُّ عليه، وعجبت من حَسدي لـه، فقال له الكاتب: وما ذاك؟ فقال: هو قوله: من حيثُ خولف بين الناس كلَّ الخلاف، وائتلفوا كلَّ الائتـلافِ، فصارت لكلِّ طبقةٍ من طبقاتهـم منزلةٌ يقفُ عندها، وصناعةٌ ينتحلهـا، فسـدُّوا الخلـل، وعدلوا المثـل، وترادفت أيديهـم، وتعاونوا على معايشهم ومساعيهم، وتساووا مع تباينِ تلك المنازل بهم في منزلة القصور والفاقـة، ولَجَـؤُوا إلى ظل المسالمةِ والموادعـةَ، وذَلَّ الأخفضُ للأعلى، طلباً لمـا في يده وحنى الأعلى على الأخفضِ ضـرورةً إلى خدمته، واقتضى ذلك أن يكـونَ فيهم ملوكٌ تحمي الدنيـا، وسُوقَةٌ يلتئِمُ بهـم الشملُ، فاستقرتْ كلُّ فِرقـةٍ بمكانها واشتغلـتْ بشأنِها؛ فالملـوكُ في الأمرِ والنهـي والحماية والـذَّبِّ، والوزراءُ في التدبـيرِ، وجمع الفيء، والكُتَّـابُ في حفظ الدواوينِ، وتسديدِ المكاتبات، والعمالُ في عمارةِ البلادِ واستدرار الارتفاعِ، والجندُ في سـدِّ الثغورِ وجهادِ العدوِ، والقضاةُ في إقامـةِ ميزانِ القسطِ وتنقيةِ أحكامِ الديـنِ، والتجّارُ في التجهيزِ والطلبِ، والعـوامُّ في المهنِ والحرَفِ، ولم يزل كلٌّ مُنهـم مستغنيـاً بغيره، فقيراً إلى مـن سواه، صُعوداً مـن أذنابهم إلى

أعلاهم، وانحطاطاً من أعلاهم إلى أدناهم، حتى اطَّرد هذا العالمُ على ما هو عليه من ارتباط أبعاضه وأجزائه، وأحكام وضْعِهِ وبنائه، وهنالك بيانُ أنَّ رحمةَ اللّٰهِ في هذا التقديرِ الحكيمِ، والتدبيرِ المستقيمِ، نزلتْ على سبيلِ العمومِ، ووصلتْ إلى الجمهورِ.

وفي كتابِ الوزراءِ لابن عبدوس، عن موسى بنِ عبدِالملكِ، أنه قال: فرَّقَ الفضلُ بنُ سهلٍ عيوناً له من نصحائه في البلدانِ، يسألون عن عيوبه فعادَ إليه واحدٌ منهم فأخبرَه: أن وفداً وفدوا على المأمونِ، فلما فصلوا قالوا: ما رأينا مِثْلَ هذا الملكِ جلالةً وعقلاً، ولا مِثْلَ وزيرِه كِفايةً وفضلاً، لولا أنه شابٌّ، ومن شأنِ الملوكِ أن يستوزروا المشايخَ الذين اجتمعتْ لهم العلوم تجربةً إلى الرياسة حيلة، فاحتجبَ الفضلُ ثلاثةَ أيامٍ يعالجُ لحيته، ثم ظهرَ للناسِ وهي بيضاء.